

إشكالية قراءة الخطاب الصوفي

أ. سعاد شابي
الجامعة الإفريقية، أدرار

تدخل هذه الدراسة ضمن البحوث التراثية والاهتمام بها، ومحاولة قراءته قراءة معاصرة، لذا فقبلولوج في الموضوع، رأيت أن أتعرض إلى مفاهيم المصطلحات المتعلقة بالموضوع وبالعنوان معا.

التراث اصطلاحاً: هو: "ما خلفه السلف من آثار علمية وفنية وأدبية مما يعتبر نفيساً بالنسبة لتقاليد العصر الحاضر وروحه"¹

للباحثين والدارسين مواقف من التراث العربي، فقد تعددت الآراء وتضاربت المواقف منتجة ثلاثة رواقد نقدية، فالأول يمثل أصحاب الموقف الكلاسيكي الذين فضلوا التراث، ذلك لأن دراستنا للتراث تعني الوفاء للذات ولأن عنصر الأصالة والتراث يقومان في مظهرهما الإنساني في عامل السبق والإبداع لأسس الحضارة ومنطلقاتها²

وأما الرافد الثاني فيمثل أنصار الدراسات الغربية الحديثة الذين يرفضون كل قديم، وحبّتهم في ذلك أن في ذلك أن ما أنتجته الحضارة العربية في مجال الدراسات اللغوية لا يزيد عن كونه عملاً تقنياً منطلقه وغيته نظام اللغة العربية في ذاتها لا غير³

وأما الموقف الثالث فتمثله طائفة تحاول التوفيق بين ما هو عربي قديم وبين ما هو عربي حديث وذلك بإعادة قراءة الموروث العربي ثم وصله بأساسيات الاستحداث إستجابة لروح العصر المتميز بالرخاء الحضاري والفكر العلمي، حيث: "كان هدف العودة إلى الماضي مرهون بتحقيق شرعية الحاضر وليس شرعية الماضي"⁴

فالحاضر لا يتقدم إلا بالرجوع إلى الماضي، لذا فإن التجديد في التراث مهمة الجميع، ومن هنا تكون رؤية الحاضر في صيرورة تتفاعل في داخلها منجزات الماضي وممكنات المستقبل⁵ وإنه من الواجب الإقرار بأن التراث العربي هو نتيجة جهد جماعي⁶، ثم عبر عصور مختلفة لا في حقبة زمنية واحدة حيث كان لكل عالم طريقته في الدراسة وتحليل الظواهر اللغوية، موضوع الدراسة، كما أنه من المؤسف أن نتهم القدامى بالضعف المنهجي في دراساتهم حيث لا يمكننا مقارنة ما أنتجوه بما بدأه أسلافنا من أبحاث، ثم من المنصف الاهتمام بترائنا العربي لأنه لا وجود لجديد من العدم وإنما دائماً الانطلاق من القديم أن كل جديد لا يغني عن قديم، ولا عيب في اختيار ما يتلاءم مع خصائص لغتنا من مناهج حديثة، أي غربية، ذلك لأن إعادة قراءة التراث العربي تجعلنا نكتشف أموراً كان لعلمائنا السبق في اكتشافها.

والخطاب الصوفي هو جزء من تراثنا العربي الإسلامي، وهو شكل من أشكال التعبير اللغوي عن تجارب عرفانية وجدانية، وهو ضرب من الكتابة الإبداعية له خصوصياته الفنية والجمالية.

إن فما القراءة الملائمة لهذا النوع من الخطابات؟

الخطاب اصطلاحاً: الكلام بين اثنين بوساطة شفوية، أو مكتوبة أو مرئية، والخطاب الرسالة وهو مما أقره مجمع اللغة العربية بالقاهرة⁷، ويؤخذ على أنه أنشطة وممارسات فعلية إتصالية⁸ وعرفه هاريس بأنه ملفوظ طويل ومتتالية من الجمل وبنفست الذي عرفه بأنه كل تلفظ يفترض متكلماً ومستمعاً، عند الأول هدف التأثير على الثاني بطريقة ما⁹

أما تودروف فقد عرفه بأنه: "أي منطوق أو فعل كلامي يفترض وجود راو أو مستمع وفي نية الراوي التأثير على المستمع بطريقة ما"¹⁰

وذكر ميشال فوكو أن الخطاب هو: "النصوص والأقوال كما تعطي مجموع كلماتها ونظام بنائها وبنيتها المنطقية أو تنظيمها البنائي" 11 ويرى شولتر أن الخطاب: "تلك الجوانب التقويمية والتقديرية أو الإقناعية أو البلاغية في نص ما، أي في مقابل الجوانب التي تسمى أو تشخص أو تنقل فقط" 12 وبالتالي ومن خلال هذه التعريفات فإن متلقي الخطاب لابد أن يفهم المقصد الذي يصبو إليه الخطاب، وأن يتمثل الرسالة الدلالية التي يجملها ذلك لأن الخطاب يحمل وظيفة تواصلية بجهازها الثلاثي المؤلف، (النص، القارئ)، وهو بذلك وحدة لغوية تحمل مضمونا معنيا في شكل جمل متوالية موجهة من باث إلى متلق له نية التأثير فيه قصد إقناعه بمضمون الرسالة فهو تفاعل مباشر بين طرفي الإتصال 13.

والخطاب الصوفي شأنه شأن باقي الخطابات الأدبية الأخرى فهو فعلية خطابية تمتلك من الآليات والشروط التي تتوفر له النصية مما يجعله يكتسب الأبعاد المختلفة التي تضمن له الانسجام وشروط التوصل من خلال دورانه ضمن معايير الاتصال الأدبي العام. لقد أنتج المتصوفة "نصوصا حصلت تحصيلها كافيًا لصيغتها الصرفية، وقواعدها النحوية وأجه دلالات ألفاظها وأساليبها في التعبير والتبليغ" 14.

وقد اعتمد المتصوفة الرمز ذلك لأنه لا يمكن التعبير عن عوالم غير عادية بلغة عادية، فتتخذ اللغة في التجربة الصوفية منحى إزدواجيا، حيث تجسد الدلالات المحسنة، شكولا ذات بعد إشاري اتجاه ما تومئ إليه، مما يكاد يمثل تفسيرا جديدا حيث لم تعد اللفظة أو الكلمة تحمل نفس المعنى الذي تعرفه بل تأخذ دلالات أخرى خلفية، مما يكاد تقريبا معنى الكلمة وصب معنى آخر بها حيث تزوج الدلالة بما يتجاوز الحد الوضعي لها: "ولهذا تتخذ لغة الشعر في التجربة الصوفية منهج الرمز الإشاري الذي يعتمد على اصطناع لغة تكسب الكلمات فيها غير ما كانت تحمل من دلالة وضعية، لكن هذه الدلالات ليست بعثا جديدا يكون السياق والروية الفنية أساس هذا البعد الدلالي الجديد، إنما أصبحت معادلة لفظية تستبدل أحد طرفيها بالآخر عن طريق ما قدمه الصوفيون من شروح وتفسيرات" 15.

فالرمز الصوفي لا يرتبط بمشاعر عامة ولا يتصل بالآخرين وإنما يتصل بذات الشاعر وحده، فكما يذكر القشيري -465هـ أن سبب نشأة الشعر الرمزي هو: "...اعلم أن من المعلوم أن كل طائفة من العلماء لهم ألفاظ يستعملونها انفرادا بها عن سواهم، وتواطأوا عليها لأغراض لهم فيها من تقريب الفهم على الحاطين بها، أو تسهيل على أهل تلك الصنعة في الوقوف على محاسنهم بإطلاقها، وهذه الطائفة يستعملون ألفاظا فيما بينهم قصدوا بها الكشف عن معانيهم لأنفسهم والإجماع والتستر على ما بينهم في طريقهم غيرة منهم على أسرارهم أن تشيع في غير أهلها" 16.

ولعل المتصوفة قد اصطنعوا هذا الأسلوب الرمزي لأنهم لم يجدوا طريقا آخر يمكننا يترجمون به عن رياضتهم الصوفية 17، فكما تذكر المصادر أن سبب نشأة الشعر الرمزي عندهم هو: "تلك الحملة التي شنها الفقهاء على المتصوفة، فأخذ كل فريق يناوئ الآخر ويشنع عليه، فاضطر الصوفية إلى الرمز والتعمية في كلامهم" 18.

هذه اللغة الصوفية الخاصة التي خرق المتصوفة المؤلف خلققت صعوبة كبيرة على القراء في فهمهم النص، والمتطلع للخطاب الشعري الصوفي عامة سيجد معاجمه الشعرية متقاربة في مجملها، وبالتالي فإن القراءة السطحية لهذا النوع من النصوص غير كافية إذ لابد من قراءة عميقة. تختلف القراءة عن النقد في أمور حيث أن القراءة تشترط في المقروء أن يكون ثريا لتتم القراءة، والنقد لا يشترط ذلك، والنص الصوفي ثري بلغته الخاصة، والحقيقة أن القراءات متعددة بتعدد النظريات الحديثة، فمثلا يمكن للدارس 19 قراءة الخطاب الصوفي قراءة سيميائية، وهنا يقوم بعملية تفكيك المنظومة اللغوية إلى وحداتها الأساسية، ثم إبراز الوسائل التي استعملها الشاعر في

التعبير عن تجربته، حيث أن معظم المتصوفة جعلوا الغزل وسيلة للتفاعل مع الملاً الأعلى، هذا ما أدى إلى خلق تفاعل مميز بين النص والقارئ.

كما أنه يمكن للدارس أيضاً أن يتعرض للخطاب الصوفي من منظور نظرية التلقي التي تهتم بمظاهر الخطاب الصوفي والمكونات النصية وفي علاقتها بما هو تواصل في علاقة المقروء بالقارئ وكفاءة المرسل، وكذا كفاءة المتلقي، وردود فعله ومدى درجة التواصل مع هذا النوع من الخطابات، إلا أن في بعض الأحيان طبيعة النص هي التي تفرض على الدارس قراءة بعينها، وهذا ما يحدث في هذا النوع من الخطابات وهو الخطاب الصوفي، فإنه وحسب طبيعة لغته الرمزية فإن القراءة التأويلية هي القراءة المناسبة والتي تكشف عن رؤى عميقة ذات دلالات خاصة يقصدها الصوفي.

وتبرز القراءة التأويلية الصوفية بوصفها قراءة في باطن النص بعد تجاوز ظاهره، جاء في المراجع اللغوية في مادة أول: تأويل، وهو الرجوع إلى الشيء، وفي لسان العرب: "أول الكلام وتأويله: دبره وقدره.. والمراد بالتأويل نقل ظاهر اللفظ عن وضعه الأصلي إلى ما يحتاج إلى دليل لولاه ما ترك ظاهر اللفظ"20 ، وحديثاً يعني: "استحضار المعنى الضمني بالرجوع إلى المعنى الظاهر"21

فالتأويل ينتقل فيه السامع من خيال إلى خيال، وذلك حسب مقدرة فهمه فقد يطابق الخيال الخيال، خيال السامع مع خيال المتكلم، وقد لا يطابق، فإذا طابق سمي فهماً عنه، وإن لم يتطابق فليس بفهم، ذلك لأن اللغة تعتبر في هذه الحالة مجال خام للفهم، ف: "الانفتاح الوجودي عند المتلقي من خلال وعيه بوجود ذاتي يجعل عملية الفهم ممكنة"22

ومن خلال عملية التأويل التي يستخدمها القارئ في تعامله مع الرموز التي تواجهه تتشكل المعاني وتتعدل، والقراءة التأويلية للخطاب الصوفي تحتم فحص شمولية الرسالة من خلال مظاهر الاتساق بين الوحدات اللسانية والانسجام بين الأفكار وسياقاتها.

ذلك لأن التأويل (هو انصراف الذهن عن الدلالة الظاهرة إلى دلالة أخرى لمنطوق واحد، ويكون هذا الانصراف بإعمال العقل واتخاذ الأدلة وتعقب العلاقات التلازمية للدلالة الخارجية المتوارية في البنية العميقة لانتظام العلامات اللسانية في سياق معين، أي أن الدلالة الراجعة في المؤول هي الدلالة غير الظاهرة...)، ذلك لأن المؤول نقيض الظاهر في قولهم: "المؤول المصروف عن الظاهر"23

وبالتالي يمكن القول أن الخطاب الصوفي يستحيل إدراك دلالات كلماته بقراءة سطحية، الأمر الذي يجعل القارئ في حذر أثناء قراءته لهذا النوع من النصوص، وبالتالي يعمد إلى اتخاذ آليات التأويل ليطاوع بها المقروء وصولاً إلى مقصوده وذلك بالوقوف على دلالاته النصية بدقة.

الإحالات

- 1- معجم المصطلحات الأدبية في اللغة والأدب: مجدي وهبة، مكتبة لبنان، 1993، ص93.
- 2- الأبعاد الإبداعية في منهج عبد القاهر الجرجاني (دراسة مقارنة): د. محمد عباس: د. محمد عباس، دار الفكر، دمشق، ط1/1420هـ-1999م، المقدمة، ص08.
- 3- التفكير اللساني في الحضارة العربية: عبد السلام المسدي، الدار العربية للكتاب، ليبيا، ط2، 1986، ص24.
- 4- المرايا المقعرة، نحو نظرية نقدية عربية: عبد العزيز حمودة، مجلة عالم المعرفة، العدد 272، أوت 2001، مطابع الوطن بالكويت، ص175.
- 5- تجربتي في تدريس التراث النحوي: صالح بلعيد، مقال مجلة الخطاب، يصدرها معهد الآداب واللغة العربية، جامعة مولود معمري، تيزيوزو، العدد 01، 1996، ص52.
- 6- جماعي لا أقصد بها عمل مشترك بين جماعة، وإنما هو مجموع أعمال فردية.
- 7- ينظر: المعجم الوسيط: إبراهيم أنيس وآخرون، 243/1، مادة خطب.
- 8- اللغة الإعلامية، دراسة في صناعة النصوص الإعلامية وتحليلها: عبد الستار جواد، منشورات دار الهلال للترجمة، عمان، 1998، ص70.
- 9- تحليل الخطاب الروائي، الزمن، التأثير: سعيد يقطين، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط2، 1997، ص19.
- 10- اللغة والأدب في الخطاب الأدبي: تزفيتان تودروف، ترجمة: سعيد الغانمي، المركز الثقافي العربي، بيروت، 1993، ص48.
- 11- حفريات المعرفة: ميشال فوكو، ترجمة: سالم يفوت، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 1987، ص31.
- 12- السيمياء والتأويل: روبرت شولتر، ترجمة: سعيد الغانمي، المركز الثقافي، بيروت، 1993، ص48.
- 13- ينظر: لغة الخطاب السياسي دراسة لغوية تطبيقية في ضوء نظرية الاتصال: محمود عكاشة، دار النشر للجامعات، القاهرة، ط1، 2005، ص40.
- 14- تحليل الخطاب الصوفي في ضوء المناهج النقدية المعاصرة: أمنة بلعلی، منشورات الاختلاف، ط1، 2002، ص19.
- 15- لغة الشعر-قراءات في الشعر العربي المعاصر:- رجاء عيد، منشأة المعارف الاسكندرية، دبط، 2003، ص279.
- 16- الرسالة القشيرية في علم التصوف: أبو القاسم عبد الكريم القشيري، تح: أحمد غناية ومحمد الأسكندراني، دار الكتب العلمية، لبنان، دبط، 191/1.
- 17- الأمير عبد القادر شاعرا ومتصوفا: فؤاد صالح السيد، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، دبط، دت، ص227.
- 18- المرجع السابق، ص227.
- 19- الدارس ههنا لابد أن يكون مسلحا بمصطلحات ومنهج قبل مقارنة النص.
- 20- لسان العرب: ابن منظور، دار لسان العرب، بيروت، 131/1.
- 21- المفاهيم والألفاظ في الفلسفة الحديثة: يوسف الصديق، الدار العربية للكتاب، تونس، ص126.
- 22- إشكالية القراءة وآليات التأويل: نصر حامد أبو زيد، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط5، 1999، ص36.
- 23- النص بين التجلي والخفاء، مقارنة لسانية لآليات القراءة وثقافة المقروء في التراث العربي: أحمد حساني، نقلا عن الأنصاري: فواتح الرحموت، حاشية على المستصفي للغزالي، 22/2، مقال بمجلة القلم، العدد2، 2005، ص107.